

دلائل الإعجاز

مؤلف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها . وهو بما يصنع في سبيل مَنْ يأخذ الأصابع المختلفة فيتوخى فيها ترتيباً يحدث عنه ضرب من النقش والوشى . وإذا كان الأمر كذلك فإننا نعدّينا بالحكاية الألفاظ إلى النظم والترتيب أدنى ذلك إلى المّحال وهو أن يكون المنشد شعر امرء القيس قد عمل في المعاني وترتيبها واستخراج النتائج والفوائد مثل عمل امرء القيس وأن يكون حاله إذا أنشد قوله - الطويل - .

(فَقُلْتُ لَهُ لِمَ تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلَاكِلِ) .

حال الصائغ يندطر إلى صورة قد عملها صائغ من ذهب له أو فضة فيجئ بمثلها في ذهبه وفضته . وذلك يخرج بمرتكب إن ارتكبه إلى أن يكون الراوي مستحقاً لأن يوصف بأنه استعار وشبهه وأن يّجعل كالشاعر في كل ما يكون به ناظماً فيقال إنه جعل هذا فاعلاً وذاك مفعولاً وهذا مبتدأ وذاك خبراً . وجعل هذا حالاً وذاك صفة . وأن يقال زفى كذا واثبت كذا وأبدل كذا من كذا وأضاف كذا إلى كذا وعلى هذا السبيل كما يقال ذاك في الشاعر . وإذا قيل ذاك لزِم منه أن يُقال فيه : صدق وكذب كما يقال في المحكي عنه وكفى بهذا بُعداً وإحالة . ويجمع هذا كله أنه يلزم منه أن يُقال إنه قال شعراً كما يقال فيمن حكى صنعة الصائغ في خاتم قد عمل له : إنه قد صاغ خاتماً .

وجملة الحديث أننا نعلم ضرورة أنه لا يتأتى لنا أن ننظم كلاماً من غير رويّة وفكر فإن كان راوي الشعر ومُنشده يحكي نظم الشاعر على حقيقته فينبغي أن لا يتأتى له رواية شعره إلا برويّة وإلاّ بأن ينظر في جميع ما نظّر فيه الشاعر من أمّر النظم وهذا ما لا يبقى معه موضع عذر للشاك .

هذا وسبب دخول الشبهة على من دخلت عليه نه لمّا رأى المعاني لا تتجلى للسامع إلاّ من الألفاظ وكان لا يوقف على الأمور التي يتوخىها يكون النظم إلاّ بأن ينظر إلى الألفاظ مرتبة على الأنحاء التي يوجبها ترتيب المعاني في النفس . وجرت العادة بأن تكون المعاملة مع الألفاظ فيقال : قد نظم ألفاظاً فأحسن نظمها وألّف كلاماً فأجاد تأليفها